خارج الحياة

الحانة

فحاميص سعيد

خارج الحياة

من منا لم يحلم يوماً بلحظات صمت"

صمت يعزلك عن الوجود

هدوء لا تسمع فيه سوى صوت عقلك بعيدا عن أعباء الحياة

هل جربت الموت؟

وهل بعد الموت صمت؟

بالبلدي كدا " حد فيكم مات قبل كدا "

عندما طرحت هذا السؤال على مجموعة من الأصدقاء سمعت منهم آراء مختلفة وحكايات لم أتخيلها من قبل، فمنهم من سرد حكايات عن موته المؤقت إثر حادثة ما، وأنه قد توقف قلبه عن النبض للحظات، وحديث آخر عن علامات وإشارات ترشدهم إلى الرجوع للحياة وبأن رسالتهم في الحياة لم تنته بعد، وآخرين أخبروني أن هناك طريقا لم يعرفوه من قبل وقد أُرشدوا إليه في لحظات الموت.. والبعض قال إنها لحظات صامتة لم يحدث فيها شيء، والبعض نعتني بالجنون لمجرد السؤال.

أقول لكم جميعا وعن تجربة ربما ليست بموت، ولكن بانفصال مؤقت وسريع أن هناك شيئا ما، ولكني لا أعلم منتهاه

هناك قوة أكبر تجذبنا إلى السكون والهدوء والصمت

هناك حالة لم نعهدها من قبل.. وهناك طريق أيضا ربما لم نسلكه من قبل.. وربما هي هلاوس الحياة.. أو احتياج لشيء ما، شيء يدعونا لمفارقة الحياة ولو للحظات.

في ظُلمةٍ خُلِقنا، وكانت السكينةُ والهدوء..

أماناً لنا من ذلك العالمِ المحيطِ ببطونِ أمهاتِنا،

حتى باغتَنا النورْ، فكانتْ.. أولى صرخاتُنا.

فلا راحةَ لنا إلا في الظلام،

ولا أمانَ إلا حين نُغْمِضُ اعينَنا عن النور.

مبحرين في ظلامٍ نهايته حلم..

أيا كانت احداثُه فهو خيرٌ من واقعٍ اُجبِرنا على خوضِ غمارِه رَغم أُنوفنا.

قصاقيص سعيد

بداية الرحلة

ما إن أغمضت عيني إلا ورأيت ظلاما دامسا. يُشعِرُني بالسكينة.

تلك السكينة التي افتقدتُها على مرّ السنين

لم يشعر قلبي لتلك الحياة بالحنين

مرت الساعات حتى بدأت أسمع دقات قلبي تهدأ، إلى أن توقفت عن الحركة تماما،

ومع آخر دقة انعزلت عن عالمي وأبحرت في الظلام، ذهبت إلى ظلمة أكبر من ظلام الحياة، ظلمة يحيط بها النور، نور يكاد يُرى من بعيد.. ولا يهدي إلى طريق

تساءلت أهي النهاية وذلك هو المصير،

أم بداية المسير..

أحداث متلاحقة لم تنته بعد، ولكن حانت لحظة النور

نور رأيته بعد سنوات من الظلام أو كما شعرت خارج الحياة،

فتحت عيني رغما عني وقد تبدل المكان، وربما الزمان أيضا، دوامة لا تعرف للشطآن سبيل.

فهذه ليست بالمشفى التي نُقلت إليها حين سقطت مغشيا عليّ.. نعم تذكرت الآن أنني سقطت ...

ولكن أين الجروح التي علت جبيني؟

وساعتي الذكية التي تهشمت إثر السقوط؟ كيف تعمل الآن دون توقف، وتخبرني أنني لم استغرق في النوم إلا بضع دقائق، وأن نشاط القلب وضغط الدم ضمن المعدلات الطبيعية كشاب لم يبارح العشرين من عمره وأنني لا أحتاج لحقن نفسي بالأنسولين كالمعتاد.

أين ذهب الجميع وأين حياتي البائسة التي تركتها خلفي حينما أعلنت استسلامي للموت؟ أين هاتفي الذي لم يتوقف لحظة عن الضجيج، وأين رسائل زوجتي الراصدة لكل تحركاتي.

أين أنا؟

هذه كانت حياتي التي تذكرتها للحظات عندما سطع النور من جديد في غرفتي المتواضعة، ولكنها لا تعني لي الكثير، فما استسلمت إلا عندما أردت أن ينتهي كل ذلك الضجيج.

ولكن هذا ليس همي، إنما همي الوحيد أن أعود إلى تلك السنين التي قضيتها خارج الحياة، وكأنها شريط سينما يمر سريعا أمام عيني ولا أتذكر منها الكثير، ولكني أشعر بالحنين إليها.

ومضات نور في ظلام دامس، صوت هامس.

كلمات محذرة وأخرى ميسرة.

خوف وضياع، أمل بالوصول.

هذا كل ما أتذكره

أملاً أن أعود إلى تلك الحياة.

خارج الحياة

بدأ الصمت يشوبه أصوات ضعيفة.

جهاز يصدر أنينا خفيفا وبعدها بلحظات بدأ المكان يتغير من جديد.

بدأت أرى وجوها ضبابية وهمهمات قريبة وأصوات مألوفة مجتمعة حولي رُغم قلتها

ها هي انقشعت الغيوم وليتها لم تفعل

بدأت الأقنعة تكسي الوجوه

زوجة.، تنفست الصعداء "إدعاءا" حين رأت عيني تتحرك من جديد.

أعلم جيدا أن هذا ليس حبا، ولكنه قد عاد إليها البنك المتحرك الذي يلبي ما تريد،

عاد ليصلح ما أفسد قبل قراره بالرحيل.

وابن ما إن اطمأن على رجوعي للحياة إلا وأخذ يجر قدميه إلى موطنه الجديد.

أما تلك الملاك التي لم تبرح مكانها منذ رحلت عن دنياهم كما اخبرتني، فهي من بللت وسادتي بدموعها خوفا من ألا أعود.

أشعلت زوجتي سيجارتها ونفثت دخانها إلى السماء

ثم أفسحت المجال لكلماتها أن تخترق قلبي من جديد

"أتعلم ماذا فعلت؟ هل أصابك الجنون؟

نحن لا نستطيع أن نحيا تحت وطأة قراراتك.

لابد أن نضع حدا لهذه المهزلة.

أتريد أن نصبح فقراء نتسول الحياة عندما تموت؟"

"كلمات جعلتني أتشبث بالرجوع إلى خارج الحياة"

تحجرت في عيني الدموع

نظرت لابنتي فاحتضنتني وبكت

تظاهرت زوجتي بالخضوع

اقتربت معللة انها تخشى عليّ من نفسي، ومسكت يدي وكأنما النار اشتعلت بين الضلوع.

لم ينطق لساني خشية على تلك الملاك الموجوع

أطلقت عيناي إلى السماء واخترق بصري الأرجاء

تنفست بعدها الصعداء

أنفاس خرجت ولم تعود

فأنا مع المصير موعود.

مرت لحظات شعرت أن رأسي سينفجر وكأن الأرض تحتضنني بعنف وتزرع خنجرها في قلبي وتنثرني في الأرجاء كحبات الرمل ثم تجمعني في عالم آخر لأُقن أنني انفصلت عن عالمي من جديد.

أغمضت عيني رغما عني ثم رحلت

لم يمض الكثير من الوقت

تبدل كل شيء

بيت جديد ألِفته، وأثاث كأنني عشت في كنفه سنين

ولكن اعلم انه جديد.

جدران منزلي مصبوغة بالنور

سقفه السماء، وأرضه بلّور

جلست مقابل الباب المقفول

وكأنني انتظر من هم بالوصول

انتبهت إلى باب منزلي سمعت صوت يطرق الباب، ولكن بهمس بسيط

اتجهت إليه لأعرف من..

فتحت الباب..

رأيت نفقا مظلما طويلا

وإذا برفيق دربي الذي لم أراه منذ سنوات، وربما لم أره من قبل،

ولكني أعرف ذلك الوجه جيدا.

رأيته يقف بعيدا يلوح إليّ بيديه من آخر النفق ويدعوني للمرور.

أغلقت بابي رهبة وفي النفس رغبة

رغبة عارمة بالعبور

ولكن قلبي يحدثني أنني من موتي لم أعود وأنني من أصحاب القبور.

فالحياة بالنسبة لي قبر مظلم كبير

والضجيج الذي يملؤها أشعر خلاله بالشرود

وذلك النفق الطويل ما هو إلا طريق المرور

مرور للحياة خارج موت الحياة

وذلك الصديق الذي ينتظرني هو سبب خوفي وفرحي وأيضا سبب الجمود.

آ يا صديقا لم أرى منه السرور

عذرا فقد كذبت فقد رأيت في عينيك أنك تحمل الأمرين معا

"فرح أو حزن مع دعوة للخلود"

وما ذلك الصمْت الذي يحيط بك أهي حكمة أم أنك لا تملك شعور؟

دع عنك ما أقول،

فإني غريق في بحر من الشرور

أرجو النجاة بمعرفة المصير

صف لي الحياة بعد الحياة وطمئن قلبي للمرور

أحدث نفسي وأنت في النفس تجاور الدم من القلب العبور

"أنا حي؟"

أم من الموتى الذي مضى عليهم العمر في القبور

"قبور الحياة وما أسوأها من جحور"

وذلك الحلم الذي يراودني نهارا لا يعرف سحور

وذلك الظلام الذي يحيط به النور.....

سمعت صوتك من بعيد يخترق الأبواب

وظلام النفق المسحور

إنه قد حان وقت العبور.

أجابني قائلا بصمت..

و نظرات يملؤها العطف والشرور

" لن أنتظر طويلا وسوف تبقى حبيسا لتلك الجحور

أخرج من ضيق قلبك إلى سعة الظلام، أو النور

أنا صديقك في تلك الحياة ودليلك بعد المرور

إن كنت تريد أن تعرف لابد من العبور

ولكن احذر يا صديقي فما أنا سوى دليل في ذلك العالم.. خارج الحياة "

تعقدت الأمور

فما أشعر به عكس ما في القلب يدور

أيا قلب متى تهتدي إلى قرار

وكيف يكون الاستقرار

عبور؟

أم حيرة في ظلام القبور؟

فتحت الباب من جديد

وعندها رأيت النور يتلاشى مع ابتعاد صديقي

صحت بأعلى الصوت مناديا عليه

يا صديق.. يا صديق

ألن تكون للطريق رفيق؟

انتظر ولا تذهب فأنا قادم إليك

ولتقبض يدي يديك

دلني على الطريق

وأخبرني كصديق

متى الخلاص

متى ينتهي صمتك

متى تحكي عيناك ما رأت

متى اطمئن كما انت

متى نصل إلى المستقر، وهل هناك قرار

وهل يعمر الظلام غيرنا وذلك البصيص من النور

هل هو يتبعك أم ينبع منك أم حولك يدور؟

"أخذ بيدي وكأنه ينتزع قلبي من بين الضلوع ثم أظلمت عيناي"

مع أولى خطواتي في الطريق

شعرت بأنني في فضاء لا يحده شيء، بل تيقنت من ذلك الشعور

قدمي تخطو على الهواء، وتتسارع خطواتنا في ذلك الفضاء

لما العجلة؟ هل يتغير شيء؟ هل ينتهي الظلام إذا أسرعنا الخطى؟

حدثت نفسي فأنا لا أملك إصدار الصوت بعد العبور

ربما لا أرى غير الظلام، وربما هناك نور، ولكن لم يحين الوقت بعد كي اراه

هكذا فعلت كي لا أصاب بالهلع والجنون.

يا ويلتي وهل يوصف هذا الشعور بغير الجنون؟

بدأت خطواتنا تتباطأ من جديد، كأننا في قطار وقد وصل أولى محطاته،

هل وصلنا؟ أم هناك من ينتظرنا للعبور؟

هل سترى عيني غير الظلام، أم سوف أبقي حبيسا لذلك الشعور؟

شعرت بصديقي يترك يدي وإذا بنور ساطع يجعلني أغلق عيني،

ولكن لم أملك غير ذلك السبيل، تكررت ساعة مولدي، ولكن دون صرخة مسموعة.

هدأ النور قليلا كما شعرت

بدأت الآن في فتح عيني ببطء

ما هذا لماذا أنا هنا؟

لماذا عدت إلى الحياة من جديد؟

بعد كل ما عانيت منها جلبّتني إليها يا صديق؟

وكيف هنا؟

أنا أبعد آلاف الأميال عن موطني

أرجوك لا تتركني في هذه الحياة وحيد

صرخت بصوت عالي لم يسمعه أحد ولم اسمعه أنا أيضا

ربما أيضا لا يراني أحد رغم أني أرى الجميع

الناس كانوا يعبرون من خلالي ولا أشعر بهم

كيف يحدث ما أرى

هل انا موجود؟

ام مجرد عين ترى الوجود؟

حتى عيني من هول ما رأت لم تستطع الصمود

أغلقتها وسرعان ما عاودت فتحها خشية من الظلام.

أصبحت الآن أخشى الظلام الذي كنت الجأ إليه للأمان.

تجولت عيني في المكان على أمل أن تطمئن لوجها مألوف، ولكن هيهات

فجميع ما رأت كانوا غرباء

إلا تلك السيارة العابرة من أمامي التي يقلها شاب حزين

تكاد الدموع تُفطر قلبه الصغير وهو يتحدث في هاتفه المحمول

اقتربت لا أعلم كيف اقتربت

بل أنا موجود معه الآن داخل سيارته واراه

هذا ابني الوحيد

ذلك الفتى الذي لا أعلم عن نشأته شيء

كان بعيدا عني منذ صغره.. أو كنت.

الآن فقط بدأ اللوم يسكن قلبي

ألوم نفسي أولا، وكيف ألوم ذلك الصبي.

فأنا أتذكر أنى من اخترت

اخترت أن أكون بعيدا

اخترت أن أكون وحيدا

واختاروا طريقهم

عودة للحياة

كان هذا الشاب يتحدث إلى زوجتي ويعارض وفاتي الإكلينيكية، ويرجو أمه أن تطمئن.

وأن الأمل مازال موجود فلا داعي أن تئن

استغربت لما سمعت

هل زوجتي لفراقي تئن؟

هل احببتني يوما؟ كاد عقلي يجن

هل أنا الظالم في تلك الرواية

لماذا تغيرت الحكاية

انتظرت لأسمع ما تبقى من كلام

عسى لنفسي يزيد الملام

قال إنه سيفعل المستحيل

وإنه قد سافر طريقا طويل

ليجد لمأساتي نهاية

ونبدأ جميعا فصل جديد من الرواية

سأل عن ابنتي الملاك

وعما تركت لهم من أملاك

كي يستطيع أن ينقلني مما أنا فيه من هلاك

قالت أمه إنها ذهبت ولم تعود

وأصاب قلبها الجحود

وقالت ما فائدة ما تفعلون

هل يعود من مات؟ فكل ذلك جنون

اتركوه فقد ذهب

عسى أن يرحمه الرب

أما عن أملاكه التي لي ترك

فأنا لن أعطيكم شيئا فقد فارق

من أين يا ابنتي ذلك الجحود

وأنتِ الملاك المحمود

هل كنت أنا من عشت بينكم ذلك العمر

أم أنني كنت أعمى في ذلك القبر

تمنيت أن أعود لوطني وقد كان

ذهبت فوجدت زوجتي تجلس بجانب الجثمان

تبتهل أن أعود

هل هو ابتهال مزعوم كما كنت دائما أرى

ام تبدل الحال كما جرى مع ابني في ذلك العالم البعيد؟

ها أنا عدت.

سألت نفسي بعد ما رأيت

هل هذا ما جنيت؟

نظرت إليّ فوجدت الصمت كما تعودت

نيران تشتعل بداخلي، وجه زوجتي الشاحب، دموع ابني التي كسرتني

دق هاتف زوجتي وكانت ابنتي كما تمنيت

سألتها زوجتي أين أنتِ

أجابتها بأنها تقف على أعتاب البنك لتحسب كم لها تركت

وتوصي أمها أن تخلع عني الحياة فقد انتهيت

يا ويلتي هل دموعها كانت زيفا عندما رأيت؟

أم هكذا تخيلت؟

هل كل ذلك الحب التي اعطتني كان كذبا؟ ام على نفسي كذبت؟

كيف ذلك وهي شبيهة من عشقت

من احببت الحياة من أجلها و بفراقها مت.

صرخت بصوت مكتوم

يا صديق الهموم

عد إليّ وأخرجني من هذا النوم

أعدني للحياة كي أصلح ما أفسدت

أعدني فقد ظلمت

أعدني لأعيد الأمور إلى نصابها الصحيح فقد علِمت وتعلمت.

حل الظلام سريعا واختفت الحياة أو اختفيت

وإذا بصديقي يقبض يدي ويأخذني بعيدا في الظلام وهكذا عدت.

ثم تركني وحيدا وسمعت قلبه يأمرني بالانتظار،

فانتظرت.

وما أسوأ ذلك الانتظار في هذا الكم الهائل من الظلام.

كأنك تنتظر تغيرا لقرار اتخذته بملء إرادتك، ويا له من قرار.

ربما تؤنس وحدتي ذاكرتي التي اهملتها أعوام، ربما أتذكر ما كان، ولكني هربت من تلك الذكريات فأنى أعود لها في خارج الحياة.

طال الانتظار.....

ثم أتت ومضات سريعة ك فيلم سينما تعرض أمامي، ولكنها تحدث حقيقة.

ربما أجبرت على ما أرى، ولكن ما أستطيع أن أفعل في ذلك الظلام غير ذلك؟

في صبيحة يوم الثلاثاء الـ ٢٩ من شهر يونيو عام ١٩٧٨ كانت أولى صرخاتي في الحياة، قبل أن تعقبها صرخات في نفس التاريخ من كل عام.

فمع إتمام عامي الثاني فارقت أمي الحياة والسبب كما علمت أنها من مضاعفات عملية جراحية أجرتها بعد ولادتي فكنت سببا لتلك الوفاة.

أصبحت أكره نفسي قبل أن اشعر بذلك الكره ولو بشكل بسيط في عيون الآخرين

لدي من الأخوة اثنين تكبرنا أنثى أخت بمثابة زوجة أب.

لا أدرى هل حجم المسؤولية الملقاة على عاتقها هي ما جعلت منها قاسية القلب، أم إنها هكذا منذ البداية ورغم معاملتها تلك إلا أن أخوتي يحبونها على نقيضي تماما ويرون دائما أنها على الصواب.

هؤلاء إخوتي

أما أبي فهو رجل صارم بمعني الكلمة، لا يظهر حزنه على فراق أمي إلا في خلوته مع صورتها التي تتوسط جدار غرفته ويجلس أمامها كل يوم وكأنه عابد في محراب تتساقط من عينيه الدموع رغما عنه، ثم يأوي إلى فراشه حاملا ثقل الحزن على صدره كمن يتمنى النوم بلا حياة.

نعم بعض مما رأيت الآن كانت حياتي، ولكن تلك المرة الأولى التي أرى فيها أبي على ذلك الحال، كنت أعتقد دائما أن موت أمي وكأنه عبئا تخلص منه.

فهو لم يتحدث عنها أبدا أمامي وإذا أخطأ أحد اخوتي وذكر اسمها كان ينظر إليه نظرة حارقة تجعله يتحول رماد في مكانه فيصمت ولا يتحدث.

ها أنا أعود لبيت أبي من جديد، وأتذكر ذلك اليوم جيدا

إنه ذكرى وفاة أمي، عندما استيقظ أبي مبكرا وأيقظ اختي واخذها وذهب وتركني وحيدا في المنزل ظنا منه أنني نائما، لقد كنت متوعكا قليلا ولم أذهب إلى المدرسة في ذلك اليوم، وحزنت انهم تركوني ورحلوا.

ولا أعلم أين ذهبوا.

أنا معهم الآن في السيارة وسوف أعلم كل شيء.

ما هذا الطريق الموحش، إنه طريق المقابر هم ذاهبون إلى قبر أمي ويفعلون ذلك كل عام وأنا لا أعلم فها هي الورود التي اشتراها أبي تجاور اخواتها فوق القبر، وأختي قاسية القلب تروي الزرع برفق، وعينا أبي تزرف الدموع، قال لأختي أسرعي حتى نرجع إلى أخيك قبل أن يستيقظ فهو مريض.

يا ويلتي كيف ظننت أنهم تركوني عمدا

وأبي الصارم من أين نبت في قلبه كل ذلك الحب.

واختي التي توقفت في الطريق لتحضر الطعام الذي أحبه

كيف ظننت أنهم يكرهوني ورحلت قبل مجيئهم إلى البيت؟

رحلت...

الآن تذكرت

رحيلي لم يكن مؤقت إنما رحيل دائم كما قررت.

ذهبت هائما على وجهي في الطرقات، ابحث في أعين الناس عن إجابات، ولكن دون جدوى ودون سؤال يذكر، أو ربما حاجة لشعور جديد لا أعرفه، ولكني ألفته عند النظر إليهم.

أيقنت أنه لن يبحث عني أحد، ربما ارحتهم مني ومن ادعاء حبي و ثقل همي على عاتقهم.

بحثت عن مكان يأويني في تلك الأيام الباردة فلم اجد غير بيت خالي الذي قاطع عائلتي منذ رحيل أمي عن الحياة

كانت اختي تذهب إليه خلسة وهي عائدة بي من المدرسة فنجلس معهم قليلا، تتحدث هي مع زوجة خالي التي تقاربها في العمر وألعب أنا مع ابنتيه ، فقد رزق بالأولى بعد زواجه مباشرة أما الثانية فتصادف ولادتها يوم مولدي، بعد انتهاء الوقت القصير نعود سريعا إلى البيت مع تحذيرات عدة من اختي بأن لا أبوح بذلك السر لأحد أيا كان وإلا سوف تحرمني من الذهاب مجددا إلى بيت الخال...

وقد كان فلم يعلم أحد أبدا بذلك السر حتى الآن

أما الآن فقد تزوجت ابنته الكبرى ولم تبق الا الصغرى.

ذهبت إليه ورحب بي جدا، جلست معه واخبرته انني اريد المكوث عنده إلى حين تدبر أمري في الجامعة فلم يتبق على نتيجة الثانوية غير أيام.

وافق، ولكنه أصر ان يخبر أبي أنني عنده كي يطمئن قلبه فهم يبحثون عني منذ وقت ليس بالقليل.

تحدث معي والمفاجأة وافق ابي على بقائي عنده

مرت الأيام سريعا وظهرت النتيجة واخترت جامعتي وقررت الجلوس في سكن الطلاب في الجامعة وبعد محادثات مع أبي وشد وجذب وافق أخيرا على قراري مع تعهد منى لقضاء الإجازات عنده، وقد كان

دخلت إحدى الجامعات التي تدرس مجال إدارة الأعمال كي التحق بعدها بشركات أبي للعمل فيها بناء على رغبته المُلحة وأيضا مهارتي التي نبغت من المرحلة الثانوية واهتمامي بهذا المجال.

في أول يوم في الجامعة وفي مُدرج المحاضرة كان الجميع يتعرفون إلى بعضهم البعض، ولكني قررت أن ابتعد قليلا عن الضوضاء كعادتي، فلا أريد أن اتعرف بأحد أو يتعرف إليّ أحد.

فقط أريد أن انتهى من دراستي كي أعود إلى وحدتي كما بدأت، ولكن القدر كان له رأي آخر.

لحظة ابتعادي اكتشفت أنني اقترب منها أكثر وهي تنظر إليّ وكأنها تراقب تحركاتي، أو تنتظر قدومي إليها.

توقفت عن الحركة تماما محدثا نفسي

"كيف لفتاة تمتلك هذا القدر من الجمال ان تجلس وحيدة؟ فضلا عن أنها تنظر إلى رجل بكآبتي. هل تنظر إليّ فعلا؟ أم أنا الذي أنظر إليها؟ لماذا لا تذهب بعيدا مع هؤلاء الباسمين الذين يستمتعون بالحياة.

لماذا تريد أن تطفئ توهج جمالها في عتمتي؟ هل أصاب هؤلاء الرجال العمى فلا يروها ويتوددون إليها؟" قطعت حديث نفسي بصوتها الملائكي قائلة: لماذا تجلس هنا بعيدا جدا؟ ألا تريد أن تتعرف على الزملاء؟ أم أنك تفضل الهدوء مثلي؟

أجبتها بحدة نوعا ما وقولت انا لست مثلك ولا أحب أن أتشبه بأحد.

قلت ما قولت وليتني ما فعلت، لا أدرى لماذا لومت نفسي بعد ما قلت، ولكنها باغتتني بابتسامة وقالت: وهذا ما جذبني إليك دون عن الجميع،

اعلم أنك لا تريد صحبة ولن اضايقك بصحبتي ونترك الأمر للأيام ربما يتغير رأيك.

أشحت بوجهي بعيدا حين دخل القاعة الدكتور ليبدأ الشرح ثم التفت ناحيتها متصنعا أنني ابحث عن قلمي ربما سقط ناحيتها، ولكني لم اجدها وكأنها تبخرت من المكان.

وقفت وأرسلت نظري في الأرجاء وكأنني فقدت شيئا غاليا حتى افقت على صوت الدكتور يقول اجلس من فضلك.

انتهت المحاضرة وعند خروجي من الباب وجدتها تجلس وحدها في آخر صف بجوار الباب، ولكن هذه المرة لم تنظر إليّ، تركتني لروحي اللوامة تجلدني طوال الليل على ذلك الأسلوب الذي حدثتها به.

تكرر اللقاء في اليوم التالي وما بعده، أظنها تبحث عني لتكون في طريقي دائما وموضع نظري.

بدأ الحديث بيننا، ولكن بشكل مقتضب.. القليل من الكلام ثم سرعان ما تطور الأمر، او بمعنى أصح انقلب الأمر.

أصبحت أنا من يبحث عنها وعن كل حجة تجمعني بها وهي تبادلني ذلك الاهتمام

تقربنا من بعضنا جدا في نهاية العام وقررنا اللقاء في إجازة الصيف.

كانت لقاءاتنا تكون بعيدا عن الناس، حتى الأماكن التي تختارها تكون فارغة، مثلا نذهب إلى القرى الساحلية في فصل الشتاء، أو المقاهي مبكرا جدا قبل قدوم أحد إليها، ربما لا تريد أن يراها أحد وهي معي، وربما قد عجبني الأمر فأنا لا أحب الزحام.

في إحدى الأيام ونحن نجلس سويا على ضفاف النيل نراقب شمس النهار وهي تشرق من خلف المباني سألتها عن حياتها وأهلها وكانت المرة الأولى التي اسألها فيها عن شيء يخص أسرتها.

قالت أنا وحيدة أبواي اجلس هنا مع جدتي مؤقتا للدراسة وارى والداي في إجازات لأيام معدودة في العام.

اتفقنا على سفري إليهم بعد انتهاء دراستي، ولكني لا اريد السفر معهم، أنا أحب جدتي وأحب الجلوس معها فهي وحيدة مثلي تماما و.....

قلت أكملي حديثك لماذا توقفتِ عن الكلام

قالت أحبك.

شعرت لوهلة أن الشمس أشرقت من بين عينيها والأرض تبدلت إلى حقول أزهار

ثم بادلتها الحب بكلمات كثيرة أذكر منها أنني قلت: أحبك أيضا عدد دموع عيني التي سقطت دون إرادتي من يوم ولدتني أمي حتى التقيتك.

أحبك أكثر من حبي لظلامي ووحدتي، أنتِ نافذتي الوحيدة على النور.

ومن يومها اجري ربي على لساني حلو الكلام وتعلمت من عينيها الغرام

مرت السنوات سريعا وفي السنة الأخيرة في الجامعة اخبرتها أنني أريد التعرف على والديها وجدتها وأيضا أريد أن أعرفها على عائلتي التي كانت تسألني عن سر سعادتي المفاجأة من يوم دخولي الجامعة، ولكني كنت معهم قليل الكلام

لا أحب أن يعرف أحد عني شيئا ولا عنها دون رغبتها، ولكن حين جاءت اللحظة تهربت من الكلام معللة أنها تنتظر عودة والديها من السفر لتخبرهم كل شيء.

احترمت رغبتها ووعدتها بالانتظار.

اختفت فجأة، لا تجيب على رسائلي ولا اتصالاتي الدائمة، بل أغلقت هاتفها، بحثت عنها في كل مكان ولم أجدها

لا أصحاب لها في الجامعة غيري وحتى اسمها بالكامل لا اعرفه

أظلمت الدنيا في عيني فجأة لاحظ الجميع انطفائي من جديد، حاولوا معرفة الأسباب، ولكن لا أحد سيعرف شيء.

رغما عني ذهبت للجامعة كي احضر امتحانات نهاية العام.

في كل يوم كنت ارى طيفا من روحها في المكان، وذلك ما يجعلني اتشبث بالحياة.

بعد نهاية الاختبارات وفي آخر يوم وجدتها تلوح لي بيديها من بعيد.

ذهبت إليها مسرعا كطفل ضاع من أمه بين الزحام ثم وجدها أمامه

احتضنتها بعنف كادت ضلوعها تتكسر بين يداي كأنني اعاقبها على اشتياقي لها.

مسحت على رأسي بيديها فهدأت من روعي.

اخذتها من يدها وانطلقت بها بعيدا عن أعين الناس جلسنا سويا وحدنا فتحدثت دون سؤال وقالت:

ماتت جدتي وكنت في حالة نفسية يرثى لها وجلست بالمشفى أيام عديدة وأنت تعرف أنني وحدي هنا فلم أستطع الوصول اليك.

والآن جئت إليك لأخبرك أني مسافرة إلى أبواي، ولكن سوف نعود، سوف أخبرهم أنك حبيبي وأنني أريد الزواج منك

انتظرني فسوف أعود إليك.

قلت لها: ومن أنتظر غيرك في تلك الحياة التي لا أرجو منها سواكِ، سوف انتظرك، ولكن لا تطيلي الغياب

أعلمي أنكِ ستتركين ذلك الجسد دون روح حتى تعودي إليه فيحيا، فأنتِ سر الحياة.

ذهبنا في الطريق إلى المطار ودخلت امامي ووقفت حتى رأيت الطائرة في السماء

وبعد ساعات جاء خبر عاجل أن الطائرة اختفت في ظروف غامضة ولا أحد يعلم أين ذهبت ومن وقتها مت.

لم أستطيع العودة لمنزل أبي في هذا اليوم، ذهبت إلى بيت خالي وجلست عنده بضع ليالي كانت ابنة خالي ترعاني في تلك الأيام دون كلام.

وبعدها لبيت أبي عدت.

ومرت الأيام وبدأت عملي في شركات أبي، ولكن جسد يعمل بروح ميتة لا افرق شيئا عن الحاسب الآلي، فكلانا نُزع منه الشعور.

بدأت الأحلام تراودني عن قلبي، وبدأ طيف حبيبتي يأتيني على الدوام، تقول أنها موجودة وأن خبر اختفائها محض أكاذيب وتدعوني للبحث عنها،

سمعت صديقي يقول

وما يدريك أنها موجودة من الأساس

ربما هي صنع خيالك.

رغم محاولاتك يا صديق بتزييف الحقائق، ولكن يقيني بأنني عشت تلك الأيام فقط في حياتي يدفعني ألا أصدق ما تراه عيني منك،

ربما هذا كله نوع من العذاب في تلك الحياة خارج الحياة.

فاقض ما أنت قاض، فأنا اخترت العبور بملء إرادتي ....

ظهر صديقي من بين الظلام فجأة بوجه غاضب وحدق نظره إلى عيناي

ثم حدث قلبي قائلا..

"إن جئت هنا بإرادتك كما تدعي فذهب بإرادتك إن استطعت.

وإن كان كذبا ما رأيت فأثبت روايتك ان شئت.

ما أنا بالكاذب وإنما أنت.

فقد ادعيت زورا أنك مظلوم وقُهِرت.

وقد أريتك ما أخفت السنين عنك."

شعرت بالخوف الممزوج بالريبة، فأي صديق ذا الذي يزرع الخوف في قلب صديقه ويقلب ذاكرته رأسا على عقب.

ثم يهدد بقدرته الخارقة على ضعفي اللامحدود في ذلك الظلام.

ماذا لو يسمع ما أخفي في نفسي منه.

هل يثور غضبا؟ أم أنه مأمور بمرافقتي على الدوام.

وهل من قوة أكبر منه تخرجني من الظلام؟

اخذ صديقي يدي وانطلق سريعا، وسريعا بدأ يريني فصل قديم من حياتي بدأت أحداثه دون رغبتي

فقلت مهلا يا صديق قد عشت تلك الأيام واعرفها جيدا ولا أحب أن أتذكرها.

اعرف أنك تريد ان تخبرني أنني ظلمت كما ظُلمت.

أرح نفس فأنا لم أظلم أحدا وقد عوضتها بالمال،

قال سنرى.

بدأ الأمر عندما قالت انها تحبني منذ نعومة اظافرها وأنها كانت تبحث عن أي فرصة تجمعنا لتراني ليطمئن قلبها، ولكن كل هذا محض أوهام

فزوجة خالي التي كانت تتملق أبي ليغدق عليها من المال رغم خلاف زوجها مع أبي، لن تنجب هذه الملاك.

اعرف جيدا ان كل هذا الحب أوهام ولذلك اغرقت نفسي بعد التخرج من الجامعة في العمل مع أبي علّني أجد في هذا العمل السلام لقلبي، ولكني بقيت حبيسا لحب تسرب للفضاء،

مات أبي وقبل رحيله ترك لي مقاليد الأمور شركات المقاولات وحسابات البنوك و الصفقات التي أبرمها مع الموردين بحضوري ومشورتي وكل شيء، وأوصاني بإخوتي خيرا وكذلك فعلت.

تزوجت أختي من ابن عمتي الذي أخذها للعيش في أوروبا وأخي الذي بقي بعد وفاة توأمه وتبعه أبي حزنا عليه، قرر أن يعزل نفسه في مدينة ساحلية مع زوجته وولده.

يصل إليه نصيبه بانتظام من أسهمه في الشركات أما أنا فكان نصيبي من وصية أبي ان اتزوج وتكون لي أسرة وقد فعلت.

تحدثت مع خالي في موضوع الزواج وأخبرته أنني أريد الارتباط بابنته فوافق على الفور لعلمه ان ابنته تحبني وتريد الزواج مني، ولكنه أيضا

يعلم انه لا مجال لدخول الحب إلى قلبي فأنا رجل عملي في وجهة نظره، ولكن ما طمأنه على ابنته انه يعرف انني لن اظلمها ابدا معي.

صارحتها كثيرا أنه لا داعي ادعاء الحب فقد حدث ما تريد واعطيتها الكثير فكانت تلح على دائما بأن ننجب أبناء.

لماذا أنجب أبناء يرثون هذا الكم من الظلام؟

ألم اسألك من قبل يا صديق هذا السؤال؟

أتذكر عندما جئتني بعد خروجي من تلك الحانة هائما على وجهي.

الآن تذكرتك يا صديق، فقد رأيتك من قبل في ذلك الطريق عندما أخذتني من يدي وجلسنا في تلك الصحراء وافضيت إليك بما يحتويه صدري من كلام ولم تعطيني جواب، ولكنك غيرت تفكيري في تلك الأيام.

جعلتني اشعر انها تحبني بصدق وان حياتي ستكتمل بها وعندما ذهبت لبيتي وجدتها وكأنها تعلم بموعد وصولي، اشعلت الشموع وارتدت ما يظهر جمالها الذي اقسم أنني لم اراه من قبل كما تلك الليلة ثم غمرتني بين ذراعيها بكل حنان وكأنني رضيع يلتقم ثدي أمه فتطعمه الأمان.

سحبتني من ذراعي وذهبت خلفها إلى غرفتنا التي لم تطأها قدمي منذ ما كان، فقد كنا نعيش معا حياة الرهبان.

خلعت القليل الذي ارتدته على جسدها وأشارت إليّ أن آتي إليها، شعرت لوهلة انني يوسف فوليت مدبرا فكان وجهها في كل مكان.

اقتربت لا اعلم كيف اقتربت ودنوت منها حتى التصق جسدي بجسدها، فتحت عيني لأري حبيبتي التي اختفت في ذلك اليوم منذ ما يقرب من أربعة ألف يوم، تنظر إلي وتبتسم فرحت فرحا شديدا وكنت أهتف باسمها دون صوت ظلت اجامعها حتى هلكت ثم نمت حتى غربت الشمس من بعد يوم

أيقظتني زوجتي وليتها لم تفعل، فقد كنت غارق في نوم تغمره أحلام الحب.

وهكذا تم الزواج ورُزقت بابنتي التي حملت اسم حبيبتي وكانت أيضا تشبهها في الروح والوجه.

مرت الأيام ولم امض معها فقد توقف عمري عند ذلك الوقت من العام، عيد الحب الذي كان بمثابة مجلس عزاء لم تنته الطعنات فيه من المُعزين.

مرت بضع سنين أخرى كانت روحي تسكن فيها الخيال وجسدي يرعى زوجتي وابنتي حتى أتت تلك الليلة التي رجعت فيها إلى البيت بعد

منتصف الليل بقليل فلم أجد زوجتي في غرفتها، بحثت عنها في كل مكان ولم أعرف لما ابحث عنها فقد تمنيت كثيرا أن تختفي من حياتي وعندما فعلت كان يتملكني الشعور بالندم على تركها إياي، ذهبت أخيرا إلى غرفة ابنتي فلم أجدها أيضا، وكأنهم لم يُخلقوا.

لم اترك مكانا إلا وبحثت فيه عنهم حتى المشافي وأقسام الشرطة.

وضعت يدي بجيبي وحملت هاتفي الذي تناسيت وجوده من كثرة إهمالي له، فوجدته في وضع الطيران كالمعتاد فعلته واتصلت بزوجتي سريعا وفورا ردت على هاتفها، وبغضب شديد سألتها أين انتِ؟

قالت حبيبي تفقد هاتفك جيدا فقد حدثتك منذ ساعات وقلت لك انني ذاهبة الى بيت أخيك في الإسكندرية بصحبة زوجته لنقضي يومين هناك وقد رحبت بالفكرة وقلت إنك سوف تنهي بعض الأعمال وتتبعنا الي هناك، نسيت ما قلت؟

أغلقت الهاتف دون رد، ثم توسد جسدي الأرض في ثبات عميق دون نوم.

فقط انظر الى السقف وكأنه قبو قبر.

ثم اتى طيفها من لا شيء تبتسم الي، واخذت بيدي تجلسني فاعتدلت.

حدثتني بصمت وكأنها تقول لي أمرين لا أدرى أيهما تقصد، ولكني تيقنت انها تحسني على المضي قدما.

لا أعلم إليها أم إلى حياتي.!

كفى يا صديقي، أخرجني من تلك الحياة واعدني إلى الظلام من جديد.

وقد كان، ما هي إلا لحظات حتى أصبح المكان يرتجف، وأنا كحجر ألقي إلى بحر متلاطم الأمواج.

راسخ في القاع بعيدا عن النور، ولكن يتزلزل المكان من حولي ولا أدري لما.

لم يمض الكثير من الوقت حتى سكنت روحي او ربما الفت الضجيج من حولي، ربما اشعرني بذاتي وانني ليس مجرد روح بلا جسد.

اعادني صديقي إليها او ربما انا من اردت الرجوع فعدت.

مرت تلك الليلة ولم أبرح مكاني حتى اشرقت الشمس وعادت زوجتي إلى البيت.

لملمت شتاتي سريعا وفتحت الباب لأجدها تتوسد صدري سريعا لتطمأن عليّ، وسألتني عن حالي وأنها قلقة عليّ من يوم أمس وفور ما أغلقت الخط معها حاولت الاتصال بي مرارا وتكرارا ولم اجب عليها فركبت القطار

لتصل إليّ سريعا وتركت الأطفال ورائها ليجلبهم أخي حين عودته من البحر.

ربما هي لعنة أصابتنا جميعا، لعنة المكوث بمفردنا بعيدا عن البشر

فذلك اخي منذ رحيله إلى الإسكندرية يذهب لأيام إلى البحر تاركا العالم ورائه ولا أحد يعلم أين يذهب أو متى يعود،

زوجته اعتادت الأمر، ولكن زوجتي لا، فهي تطاردني أينما ذهبت.

لكن لا اخفيكم سرا حينما كانت بين زراعي شعرت بشيء جديد وكأنما بذور حب قد ألقيت في صحراء قلبي وتنتظر غيث من السماء، حتى فتحت عيني لأجد حبيبتي تقف خلفها وتلوح بيديها إليّ تركت زوجتي وذهبت ورائها ابحث عنها في كل مكان

وكأنها سراب كلما اقتربت منها أرى أنه كان طيفا من روحها.

بقيت على ذلك الحال سنوات طوال، تغيرت زوجتي وكبرت ابنتي فكانت أقربهم لي ودائمة السؤال عني.

أما ابني فلم اعلم عنه شيء، ربته زوجتي بعيدا عني، ربما خشيت عليه مني وهي أيضا تعلمت من زوجة أخي فأهملت السؤال عليّ.

ربما ما عادت تحبني وربما أنا رجل أناني لا يرى إلا ما يريد اوقفني صديقي عن الكلام وقال حان الوقت.

قلت أي وقت وهل هنا وقت؟

قال سترى

أصوات لا اميزها كالضجيج تصدح في اذناي وجمع غفير أراهم كالضباب

أنفاس لاهثة جهاز القلب يصدر صوتا يدل على أن نبضات القلب سريعة جدا ثم بدأت تهدأ شيئا فشيئا إلى أن وصلت إلى المعدل الطبيعي.

فتحت عيني رأيت زوجتي تقف خلف الأطباء.

سألني الطبيب عن اسمي وزوجتي وكم عندي من الأبناء.

اخبرته كل شيء فنظر إليّ وتنفس بصعوبة وقال سيبقى تحت الملاحظة لبضع أيام.

ذهب الأطباء واقتربت زوجتي مني، بل جلست إلى جواري ثم قالت: كم لدينا من الأبناء؟

سألتها ماذا فعلت ابنتنا؟ سوف أصلح كل شيء لا تقلقي

قالت حبيبي ليس لدينا إلا ولد واحد وهو يعيش خارج البلاد

ولكن هون عليك ستكون بخير لا تقلق.

خرجنا من المشفى بعد ادعائي انني بخير وأخبرتهم بما يريدون سماعه لا أعلم أنا المجنون أم هم، ولكني على يقين ان لدي ابنة وهي تشبه حبيبتي.

عدت إلى الحياة من جديد، أعيش حياتين معا، واحدة مع زوجتي وأهلي والأخرى عمل ثم السهر في إحدى الحانات أقص حكايتي على تلك النادلة التي تعمل في الحانة، ربما اخترتها لتسمع ما أقول لأنها كالبحر فهي منصتة جيدة، رغم أن أمواج عينيها اشعر أحيانا أنها ستبتلعن لأغرق في الأعماق وترتاح من كآبتي وأحيانا أخرى أشعر أنها يد تمتد لتربت على كتفي مواسية إياي لما فعلته الحياة بي.

ولكن في آخر ليلة كنت هناك حين جاء ذلك الشاب الهارب ولا اعلم مما يهرب، ولكنه كمن وجد الأمان بين السكارى هنا في ذلك المكان البعيد.

اقترب منها فألقمته اذنيها تسمعه بإنصات ودفئ كالرضيع بين يدي أمه، وكنت قريب منهم فسمعت ما قال أو بعض مما قال، وذهبت.

الحانة

أحيانا يضيق بك الطريق رغم اتساعه للناظرين وتظلم الدنيا في عينيك رغم سطوع القمر المُبين وتأخذك قدميك لا تعلم إلى أين أو كيف ذهبت لتلك الزاوية من العالم، فقط أنت هناك الآن وعليك أن تعيش ذلك الجزء من الحياة التي ربما ستصبح حياتك الكاملة..

لا تتردد كما فعلت أنا، عبر عما يجول بخاطرك، فالحياة مجازفة ولن تصل إلى مبتغاك وأنت جالس تتمنى وترسم في خيالك حياة ليست لك، فمثلك سيبقى على حاله ولن يتغير حتى يتحرك، فالكون جميعه في حركة دائمة وهكذا تستمر الحياة ...

" هروب "

أيقنت أنه لا ملجأ لي سوى الهروب إلى تلك الحانة البعيدة والاندماج بين العابرين من السكارى وتصنع الضحك على أحاديث تبدو سخيفة، ولكن بفعل الخمر يضحك الجميع.

اقتربت أكثر من البار ونظرت إليها وطلبت كأسا من الماء ورغم سحر عينيها، إلا أنني تعمدت ألا أعيرها اهتماما..

ملأت الكأس بحرفية، وقربته مني وهي تنظر إليّ غير مُبالية بالجميع حولي، قالت في هدوء وبصوت منخفض‌لن تستطيع المكوث هنا كثيرا : دون أن تحتسي ولو القليل من الخمر.

قلت لها: "ولكني لا أريد أن أُغّيب عقلي وأنسى الآمي بالخمر، وسوف أدفع لك مقابل الماء سعر الخمر"..

قالت: يا صديقي الفكرة ليست بالمال، ولكن المكان هنا بئر أسرار العابرين فلا يصح أن يتحدث الجميع وتسمعهم بعقلك، هنا لغة القلوب فقط هي السائدة.

أو .....

قلت..... أو ماذا يا سيدتي أنقذيني إذا استطعتِ؟ :

قالت: أو تأتي إلى جواري خلف البار وتسقي الناس معي، ولكن بشرط..

قلت موافق

قالت اسمع شرطي أولا ولا تتعجل الأمور

قلت لها أسمع وأتعلم

قالت: أريد أن أسمع منك حكايتك قبل أي شيء

حكايتي تتلخص في اليأس..

يأس من الوصول لنهاية الطريق، يأس من شعور الآخرين بي، يأس من الحب.

قالت: وهل في الحب يأس؟

نعم عندما يكون حب طرف دون طرف، هل تعرفي شعور أن يكون لديك كل شيء، ولكن دون جدوى،

لديك المشاعر، ولكن حُرمتي البوح، لديك اليقين، ولكن تبحثين عن الروح، لديك الطريق، ولكن تخشين السير في الظلام..

فقد كنت أدعي الشجاعة في الحب، ولكن أمامها كان لساني ينعقد عن الكلام وعيناي تسافر في المكان خشية لقاء عينيها، كانت تتعامل معي بكل حنان، أو ربما أنا من اعتقد ان النظرة منها أكبر من كلام الحب

صنعت لنفسي خيالا وأوهَمْتني أنها تبادلني المشاعر، ولكن ذلك كله كان صرحا من خيال..

عجزت عن إبداء مشاعري وقلت ربما سيأتي اليوم الذي أتحدث فيه وأبوح لها بكل شيء ومرت أيام وسنوات حتى أعلنت أمام الجميع أنها سوف تتمم قصة حبها بالزواج من فلان.. وهنا كانت الصدمة

صدمتي ليست صدمة الشعور بالخيانة أو كسرة القلب، ولكن كانت أكبر من ذلك بكثير،

رأيت ان الجميع ومنذ وقت ليس بالقليل كانوا يعرفون بقصة الحب هذه وبفرحة عارمة كانت المباركة لها تعم المكان وأن قصة حبها يتعلم منها القاصي والدان، وأنا وحدي الذي لا علم لي ....

رغم أنني هنا ومعهم دائما.. أصابني الشك في نفسي هل أنا فعلا موجود ام مجرد روح ترى الوجود

ذهبت في الطريق الذي كنت أخشاه دائما، ذلك الطريق المُظلم الذي قادني إلى هنا.. إلى الحانة وإليك..

هذا كل شيء..

قالت: نسيت أن أخبرك أنك لن تجد حلول هنا لمداواة آلامك، ولكن سوف ترى في بعض حكايات العابرين ما يهون عليك مُر الألم

تعالى إلى جواري وابدأ حياتك الجديدة

وسوف أقص عليك حكاية ذلك الرجل الجالس في الزاوية منذ يومين

في البدء سمعت صوتا إنه باب الحانة يُفتح..

دخل منه رجل خطواته ثابتة، غزا الشيب شعره الذي كان يتدلى جزء منه على جبينه ويحجب جزء من حزن عينيه كان قلبه ينبض ببطء تكاد تسمع نبض قلبه وكأنه ينتحب، اتجه إلى البار وطلب مني كأسا تلو آخر، وبعد فترة طلب زجاجة الخمر والكأس وأخذهم وذهب لتلك الزاوية منفردا بنفسه

ذهبت إليه لأُبدل كأسه وأعطيه غيره

قال: هل أستطيع الجلوس على البار مرة أخرى

قلت: تفضل وافعل ما تشاء،

ذهبت في طريقي وتبعني وجلس قريبا مني وطلب أن أملأ له كأسه من جديد وبدأ حديثه وقال:

كنت لها كل شيء كنت أرويها الحنان، أتحسسها بلين، أنزع الآمها برفق، أتنفسها بعشق، آمنت أنها لا ترى غيري في ذلك الوجود وأنني عشق قلبها وجسدها وأنه يكفيها احتضاني لها عن كل ملذات الحياة، وأن الظلام يعم الكون إن لم أكن فيه

وحين كنت أبتعد لظروف عمل أو غيره كانت دائمة التواصل معي ودائمة الإلحاح على عودتي سريعا إليها

آمنت بالحب معها وأيقنت ان الحياة هي، وحصرت أنفاسي بقلبها..

ولكن كل شيء تغير فجأة، بدأت إهمالي تدريجيا

بدأ الحب يصيبه الفتور.. بدأت أشعر بتصنعها في الكلام وحتى ضمتي لها كانت باردة، حار قلبي لماذا

كنت أكذب شكي دائما وأتهم قلبي بالتقصير في حقها ...

وذات يوم ذهبت إليها باشتياق لأخبرها بأني لا أقوى بدونها على الحياة وأنه لابد أن يتجدد ذلك الحب ويزهر من جديد

فتحت باب الغرفة ببطء كي لا أُقلق منامها

فوجدتها تلتحف جسده بأنفاس متسارعة

شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره يغمرها بكل ما أوتي من قوة وهي تئن..

همت على وجهي إلى أن وصلت هنا لا أعلم ماذا أفعل.. قررت أن أدفن نفسي في الظلام غير مبالي بتلك الحياة الزائفة.. وأن أضع إكليلا من الدمار على قلبي الذي يأبى الحياة.. فضلا املئي الكأس من جديد.

ملئتُ كأسه وبعدها أتيت أنت.

والآن حان دورك لتستمع بقلبك لقلوب الناس وما تبوح به.

انظر إلى تلك الفتاة الجميلة خلف النافذة

انظر إلى حيرتها وخوفها.. سوف تدخل فالمكان هنا جاذب ويشعرك بالأمان، انتظر قليلا ولا ترمقها بعينك كثيرا وسوف تأتي من تلقاء نفسها، فإذا دخلت استقبلها انت ...

وبالفعل دخلت وجلست بجوار النافذة داخل الحانة كانت تمتلك شعرا كثيفا يبدو عليه اعتناءها به، يشبه شعر خيل عربية أصيلة، بشرتها ذات صفاء مبهر، عيناها كحيلتان يغمرهما الشجن والحزن، ذهبت إليها بهدوء وقدمت إليها كأسا ورحلت ثم مكثت غير بعيد حتى أنهت كأسها

فذهبت إليها من جديد اسألها هل للكأس أزيد، لكنها نظرت وهزت رأسها دون أن تصدر أي صوت، وبعد فترة من الوقوف أمام عينيها ذهبت إلى البار مرة أخرى وانتظرت.

مر الكثير من الوقت، هممت بالوقوف لأذهب إليها من جديد، ولكنني رأيتها قادمة إليّ.

جلست على البار وبدأت في ثرد الحكاية وقالت:

كانت صديقتي وأمي وأختي بعد أن فقدت عائلتي في حادث مأساوي، كانت لي كل شيء في الحياة، أحببتها وتعلقت بها كثيرا كنت أستمع لها وأنفذ دون نقاش، فقد آمنت أنها دليلي في الحياة.. حاربت كل من حاول أن يفرقني عنها.. كنت مُسلمة لها أمري تماما..

ذات يوم أخبرتني بأن هناك احتفال سنذهب إليه سويا.. وافقت وفرحت جدا، كنت أبحث عن اي مصدر للبهجة لتُنير ظُلمة فقدي لعائلتي، لم أكن أعلم ما ينتظرني هناك.. إنها الحقيقة المظلمة..

كانت تحثني على الجلوس مع هذا و ذاك مبررة أنه احتفال وسيمضي فنستمتع بالوقت و أن اتدلل واتودد إليهم ، لم تكن صفاتي ابدا، شربت كأسا تلو آخر ثم رأيت نفسي بين ذراعي أحدهم يراقصني وآخر يقبلني ثم

هدأت الموسيقى فجأة ورحلنا جميعا في سيارة إلى منزل ظننت أنه منزلي ، كانت رأسي ثقيلة أريد النوم وسعادتي هي ما تدفعني إلى ذلك ، لم أكن أعلم أنها سعادة زائفة حتى استيقظت صباحا وأنا مُمددة عارية من ثيابي على سرير في بيت غريب ولا يوجد أحد غيري، صرخت واذا بصديقة عمري تفتح باب الغرفة وتدخل محاولة تهدئة روعي ، انفجرت فيها سائلة هل كنتي تعلمين أن كل هذا سوف يحدث ؟ قالت نعم كنت أعلم و انت كنتي مُستمتعة كثيرا ويمكنك مشاهدة ذلك بنفسك ، ثم فتحت هاتفها وشاهدت نفسي وأنا في أضعف لحظات حياتي وهؤلاء الوحوش يمزقون عفتي ،، قلت لها لكني لست مثلك .. قالت ولكنكِ كنتِ تعلمين كل شيء عني ثم قالت بمنتهي البرود

الآن أصبحت مثلي تماما...

لم أجد ما أتفوه به حينها فأنا فقدت كل شيء

فقدت نقائي فقدت قلبي وجسدي وفقدت من كنت أعتقد أنها صديقتي وجزء من روحي.. أصبحت على هذه الحالة بعضا من الوقت لم أجد طريقا للرجوع إلى أن سمعت خبر موتها على يد أحد السكارى حينها

قررت التوقف على أمل وجود باب للعودة عن الطريق، فهل تملأ كأسي من جديد؟

ملئتُ كأسها إلى نهايته واصبحت انخرط في حكايات الزبائن، ولكن جرحي لم يلتئم بعد

رغم أنني وجدت حكايتي حلقة في فناء الآخرين

ايقظتني صديقتي بقولها: لقد حضر المدمن

قلت: أي مدمن!

قالت: لا تتعجل سوف يقص حكايته من جديد فهو مدمن أيضا للكلام وليته لم يدمن غيره

اقترب المدمن من البار أكثر، وجهه كبدر انطفأ نوره، طويل القامة حسن المظهر كنجوم السنيما، نظرت إلى صديقتي فوجدتها غارقة في النظر إليه تبسم لها بوجهه الشاحب والدموع تملأ عيناه وطلب كأس من نبيذ، اقتربت منه وصببت له الكأس كي أعيره كل سمعي، بدأ حديثه وقال

لقد عاد يوم جديد اشرقت شمسه دونها فهو ليس يومي وليست حياتي ،فأنا دونها كرجل أُلقيّ في بحر مظلم متلاطم الأمواج

حكايتي بدأت قبلها وللأسف لم تنته بوجودها فالإدمان صعب، ولكن ليس مستحيل مفارقته... علمت هذا بعد فوات الأوان، بعد ان رحلت

انا اعترف امام الجميع بخطئي، ولكن جميعنا مخطئون... فهذا مدمن خمر وذاك مدمن مخدرات واخر مدمن على القراءة وربما انت ياذا الوجه الجديد مدمن على سماع حكايات الناس... اما أنا فمدمن نساء، كنت الجأ إليهن لإرضاء غروري وشهوتي وكل من تعاملت معهن بائعات هوى، حتى حانت اللحظة التي وقف امامي الجميع وقالوا سوف تتزوج لا محالة... أخذوني إليها ليتمموا الزيجة

رغم رفضي ظناً منهم انها سوف تكون علاجي، ظلموها معي وليتهم ما فعلو

عندما رأيتها اول مرة لا اعلم ماذا حدث في كياني قررت سريعا ان اتحدث معها، لديها روح خاطفة جاذبة، صوت ملائكي، تحدثت وسمعت صوتها من السماء آت

قالت: أعلم أنك مجبور على هذا اللقاء ولا أعلم لما، ولكنني أريد أن أخبرك بشيء، لقد دعوت الله كثيرا أن يجمعني بك فمشاعري لم تتحرك

لرجل غيرك، ولكن إذا أردت الرحيل... فافعل ذلك وسأعلم حينها أن دعوتي لم تستجب،

قلت: كيف أرحل وقد وجدتِ روحي أخيرا وانتشلتها من الظلام، لن أكذب عليك انا لم أركِ قبل هذا اليوم، ولكني الآن أشعر أنني أعرفك منذ سنوات،

اسمحي لي ان اكون لك حبا وروحا ونبضا وان اسكن ذلك النور النابع من قلبك ووجهك، اسمحي لي أن أحبك بكل ما أوتيت من عشق

لا أعلم كيف تفوهت بتلك الكلمات... ربما هي روحي من كانت تتحدث، تلك الروح التي أغلقت عليها داخل ظلامي ونسيت وجودها فأصبحت عدم.

مرت الأيام ولم ينته مرضي، ولكنه قل، حتى تزوجنا وعقدت العزم ألا أعود ثانية لذلك الطريق، ولكن هيهات لشيطاني ان يتركني ويذهب في سبيله بعيدا عني

قال مرة ولن تشعر زوجتك بشيء فأنت قد تغيرت كليا فحذاري أن تقطع متعتك مرة واحدة، ولكن اجعلها تدريجيا كي لا تنفجر من جديد.

قادني لأحد الأماكن التي تهوى نفسي إليها وحدث ما كنت أخشاه، ولكن حمدا لله لم تشعر زوجتي بشيء.

تكرر الأمر، ولكن هذه المرة رأتني زوجتي صاعدا لهذا المكان عند مرورها بجواره صعدت ورائي واكتشفت خيانتي. غضِبت كثيرا ولكن مع وعودي رضخت لحبها وعادت على شرط ألا يتكرر الأمر ، حتى التقينا بصديقتها التي منذ رأيتها وعدت نفسي أنها ستقع في شباكي، مرت أيام ولا أنكر أنها صعبة المنال ولكني أخيرا وصلت لمرادي معها ولكن تلك المرة كانت بالنسبة لي عقاب لنفسي فعلا كرهت مرضي وإدماني وقررت أن أذهب إلى طبيب وأخبر زوجتي بكل شيء كي تساعدني ، لكن عند رجوعي للمنزل وجدته مهجورا كأنه دمار ووجدت خطاب من زوجتي مفاده أنني لن أتغير ، بحثت عنها في كل مكان ولم أجدها مر على موتي دونها الآن خمس سنوات ومازلتُ أبحث عنها ولن أتوقف حتى تعود أو تنتهي حياتي. لا تملأ الكأس فسوف أذهب لأُكمل طريقي في البحث عنها.

ذهب وكأن أحد اضواء المكان انطفأ.

أصبح مكانه مظلما وكأنه قبر مهجور ولم يجلس مكانه أحد.

وما هي إلا لحظات حتى سمعتُ صديقتي تقول: ها قد جاء المجنون.

اقترب المجنون وقال لصديقتي لقد سَمعتكِ وأخبرتني ولا أعرف متى ستقتنعين أنني لست بمجنون.

اسمع أنت يا هذا وأخبرهم أن عقلي مازال بكامل قوته، ولكن املأ الكأس كي أستطيع الكلام. ملأت كأسه وقبل ان يرتشف منه قطرة بدأ في الكلام

قال: هي تخبرني بكل شيء تدلني على الخير دائما أخبرتني أيضا أنها تُحبني بكل ما أوتيت من قوة وأنني مُقدر لها منذ ولادتي، ولكن عندما أخبرها أن قدري لامرأة غيرها تذهب سريعا وتؤذي زوجتي

في إحدى المرات بعد أن أغضبتها وكنت قريبا من زوجتي خنقتها حتى كادت تموت دون أن آري كيف أو متى هذا حدث.. كل ما رأيته هي نظرات زوجتي لي كأنني انا من قمت بخنقها وليس الجنية.

أمست زوجتي تخشى الجلوس معي وحدها دون الابتعاد عني لتأمين نفسها. انا أحب زوجتي جدا ولا أستطيع أن أمسها بسوء. وأشعر في البعد عنها أنني سكنت الجحيم.

قلبي لا يحتمل كل هذا العذاب.

سكت قليلا ثم فُتح باب البار ودخلت امرأة في العِقد الرابع من عمرها تلبس فستانا أسود اللون

شعرها قصير، وعينيها كأنما اجتمع الليل في قلب القمر، ذات بشرة شفافة، بيضاء وكأنما صُنعت بمقاييس الجمال، ولكن الكآبة والحزن كانا يتحدثان من شفتيها.

اقتربت منه ووضعت يديها على كتفه.

قال لها اعلم انهم لن يروكِ، ولكني اراكِ. تحدثي وسوف أخبرهم بما تقولين،

قالت له: حبيبي كل من في المكان يراني إلا انت الذي أحتاج أن يراني دون عن الجميع، لا اعلم ماذا حدث لك، ولكني لن ابتعد عنك مهما فعلت.

أعلم ان وفاة والدتك قد ترك فراغا كبيرا في حياتك، ولكني بجوارك ولن اتركك.

ثم أخذته من ذراعه وذهبت وهو تبعها دون حديث.

كان يبكي.

قالت صديقتي: هكذا الرجال.. وسكتت

مرت ساعة صامتة لم نتحدث في شيء، كسر الصمت صوت صديقتي حين قالت لي اذهب إلى قبو الحانة في الأسفل وأتي بأحد أنواع الخمر وفعلا ذهبت إلى هناك لأجد رجلان أحدهما في العقد الخامس من عمره والأخر شاب، ويتلفت أحدهما حوله مذهولا من المكان وربما الزمان أيضا، ويقول أنا غرقت في البحر كيف وصلت إلى هنا

اما الآخر كان يقف صامتا.

قال لي الرجل الكبير حين رآني: اين انا الان بعد هذا الطريق الطويل الذي قطعته.

هدئت من روعهم وأخذتهم معي لصديقتي ربما تعرفهم.

كانت الحانة فارغة في هذا الوقت المتأخر من الليل ولا يوجد أحد سوانا انا وصديقتي.

اخذنا الرجلان واجلسناهم وصببنا لهم كأسين ماء وبدأ أحدهم يسرد الحكاية وقال:

كنت اجلس في الحارة وكان الطقس بارد نوعا ما، وهذا ينبئ ان الشتاء سيكون قارص هذه السنة، دعوت الله ان يحفظنا نحن الفقراء الذين تكسونا السماء.

سمعت صوت اعرفه جيدا أنها جارتي تسألني كالمعتاد عن سبب جلوسي في هذا الوقت المتأخر من الليل في الطريق تحت وطأة البرد، اخبرتها أيضا كالمعتاد أنني اجلس لأدخن السجائر فزوجتي منذ حملت وهي لا تطيق رائحة الدخان.

فبدأت تتلو على مسامعي كلماتها التي تذكرني دائما بفقري وان التدخين طرف لا يستحق أمثالي ان يفعلوه وأن اوفر أموال السجائر لأجد طعاما يصلب قوامي، فهي لا تمل تلك الكلمات، ولكن من يعيرها اهتماما، فالدخان بالنسبة لي هو السبيل الوحيد الذي انفث من خلاله همومي في الفضاء

سكنت الجارة واصبح الهدوء يعم المكان من جديد للحظات حتى سمعت صوت اقدام رجل يمر امامي فبادرت بسؤاله: يا سيدنا الافندي.. الساعة كام لو سمحت؟

الساعة ١٢ يا سيدي حاجة تاني..جاتكم البلا تلاقيح جتت

ربما ظن أنني لص من لصوص الطرقات او مسكين يتسول من اجل المال، أنا بالفعل مسكين، ولكني لا اتسول، قطع حديث نفسي صوت جارتي من جديد فهي لا تهدئ ولا تمل من مراقبة الاخرين.

خير يا ام محمد خير؟

سمية مراتك بتنده عليك شكلها بتولد يا طايع..

حاضر يا ام محمد أنا داخل اهو.. جيب العواقب سليمة يا رب

اقتربت منها وجلست بجوارها اخفف عنها آلامها ثم سألتها مالك يا سمية؟

هموت يا طايع الحقني هات ام جمالات بسرعة أنا شكلي بولد.

لا بتولدي إيه بس لسه بدري على الولادة وبعدين بلاش الولية دي انا بقيت اتشأم منها.

معلش ياخويا مفيش غيرها هترضى تيجي ببلاش دلوقتي

ماشي اديني هاخد العجلة ورايح

((إنه في عام ١٩١١ في اليوم ١١ من شهر نوفمبر)) سمعت التاريخ في الراديو وأنا امشي في طريقي يصدر من إحدى المقاهي ولكني بقيت أردد الأرقام في عقلي طوال الطريق متعجبا من كثرة تكرار الرقم واحد، ولا ادري ما العجيب في ذلك ولكنها شدت انتباهي جدا.

وصلت أخيرا عند بيت ام جمالات الداية قُلت ((يا رب بحق طلوع فجر اليوم الجديد ده أكرمني واجعل لي ذرية وسند))

طرقت الباب واخبرتها بحالة زوجتي وأنها في مخاض الولادة حضرت ام جمالات أدواتها بسرعة وحطت شال أسود على راسها لتكتمل صورة الغراب الذي يأتيني دائما بأخبار شؤم.

ام جمالات :((اسبقني انت يا منيل وأنا أحصلك ولا تكونش فاكرني هركب وراك على العجلة))

بنظرة غضب قولت لها ((من جمالك يعني هركبك الأوتونبيل بتاعي إنتي حلال فيكي تزحفي ورايا))

(يا أخي روح أنت والمعزة بتاعتك دي.. أنا عارفة بتتجوزو وتخلفوا وانتم كحيانين ليه))

زوجتي على معرفة بأم جمالات منذ سنوات.. فهذه المرة الرابعة التي تقوم فيها بتوليد سمية..

فهي تذهب إليها في كل مرة ونظرة الحزن في عينيها لعلمها ان اطفالنا يموتون بعد الولادة مباشرة ولكني كنت على يقين ان الله سوف يجبر

خاطري، هذه المرة سوف تكون مختلفة عن سابقاتها هكذا أخبرني الشيخ "آدم" الذي يسكن جواري قال عندما قابلته أمام بيته اشكوا له حالي من عدم وجود أولاد

ولكن الشيخ "آدم" قال لي عاشر مراتك بعد صلاة الفجر وتكون قبلها مصلي وعلى طهارة .. وربنا هيبعتلك الولد الصالح

قولت له صالح ولا فاسد يا عم الشيخ آدم أنا بس نفسي يكون ليا ضهر وسند.

الشيخ "آدم" هو إمام المسجد يسكن في غرفة أطلقنا عليها اسم السرداب.

حكاية هذا السرداب بدأت عندما جاء الشيخ "آدم" من الأرياف رفقة ابيه وأمه واخوته لكي يلتحق بالدراسة الأزهرية، ولكن أمه توفت سريعا عندما سكنوا المكان،

والغريب لم تكن مريضة، ولكن البعض قال انها فتحت باب السرداب وحينها ماتت.

لكن لم يرى احد بعينه ما حدث ولم تتحدث أيضا عائلتها عن الامر، والبعض الاخر قال انها هجرتهم ويرجعون الأمر انه لم يشاهد احد الجثمان بحجة ان عائلتها اخذوها في الصباح الباكر ليدفنوها في بلدهم ولم يخبروا احد.. مرت الأيام حتى تزوج الاخوة والاخوات في بلدهم ولم يبقى إلا الشيخ آدم وابيه في المكان.

درس الشيخ آدم في الأزهر ولما حضرت والده الوفاة كان قد تعين إماما وخطيب في مسجد حارتنا، وصآه اباه ان يحافظ على السرداب ولا يجعل احد يصل إليه او يدخله .

وانه من يحاول سوف يموت..

والد الشيخ آدم كان يقال عنه انه رجل صاحب كرامات

وكان الجميع يصدق تلك الرواية حتى مر الوقت ولم يعد يتذكر أحد لكبر سنه وعدم خروجه من البيت.

ولكني لا انسى شيء بسهولة رغم صغر سني أتذكر كل شيء واتذكر أيضا مشكلة والدة الشيخ آدم وعدم رضاها عن المكان.

أعود إلى سمية التي كانت تتألم هذه المرة كثيرا وكانت ولادتها متعثرة حسب قول ام جمالات حينما قالت (يا طايع مراتك حالتها صعبة روح هتلها الحكيم)

اجيب حكيم منين هو أنا لاقي أكل.. ولّديها بس وهي هتبقى كويسة ..

((أنا عملت اللي عليا وحذرتك))

وما إن دقت الساعة الواحدة حتى بدأ يعلو صراخ إبني آدم.. «آدم طايع الكارمي الشمسي» على اسم الشيخ "آدم"

بعد ان تمت الولادة بنجاح طلبت سمية من الداية أن تحضر لها ابنها كي تحتضنه وتطعمه.. وما إن انتهت من إطعامه إلا وفارقت سمية الحياة.. وبدأ "آدم" حياته بدون أُم، وأب فقير..

مرت سنوات وتربى "آدم" معي وزوجتي التي تزوجتها بعد وفاة سمية ب ٤ أشهر فقط.

ولكن زوجة أب ليست كغيرها فهي ربت "آدم" وأعطته حنان أمه وأصرت على تعليمه فهي لم ترزق بأولاد.

رحلتُ عنهم وتركتهم بعد أن علمت أنها لا تستطيع الإنجاب وقلت لها ((الواد عندك أهو خلي بالك منه أنا مسافر البلد أسبوع وراجع)) ولكني لم اعود إليهم.

ومن هنا تبدأ حكاية ابني آدم طايع الكارمي سوف اتركه يحكي ما كان.

نظرت إلى صديقتي فوجدت الذهول الذي تملكني مما سمعت انتقل إليها أيضا وكأننا في فيلم سينما قديم

قطع ذهولنا صوت آدم وهو يقص حكايته حين قال-

هذا الأسبوع الذي اخبركم عنه ابي امتد طويلا مرت بعده سنوات، كنت قد وصلت إلى مرحلة الجامعة ولم يعود ابي من سفره حتى الآن..

سمعت أمي فاطمة تقول : عملنا فيك إيه يا طايع أنا وابنك عشان تسيبنا في حالنا ده وتهج ..

فاطمة هي زوجة ابي طايع وأم "آدم" كما يناديها الجيران.. تزوجها ابي على عجل كما اخبرتني فقد كانت أكبر منه سناً.

تزوجت قبله مرتين ولم يرزقها الله الذرية .. ولكنها تزوجت ابي على أمل أن ترزق بطفل يملئ عليها حياتها ويكون سندا في الكبر

تكررت نفس المشكلة مع ابي ومنذ ذلك الوقت وهبت حبها وحنانها لي وعاملتني على اني ابن لها بعد ان تركنا طايع ورحل وبعد انتظارها له طويلا علمت أنه لا مخرج من أزمتنا إلا أن تعمل لكي تستطيع العيش، فعملت كل شيء.. كخادمة في المنازل.. أو بائعة في إحدى المحال.. ولكن صحتها بدأت تتدهور فقررت العمل في شيء قريب..

جمعت مبلغ من المال واشترت عربة فول ووضعتها أمام المنزل وكانت سندا وعونا لنا وساعدت في تعليمي حتى بدأت في الدراسة الجامعية ولكن في هذه الأحيان ذلك القلب الذي اتسع ليحمل حب طفلا لم تحويه احشائها اصبح يضيق بجريان الدم في عروقه، وازداد المرض حتى لم تعد تستطيع التحمل.

قلت لها يا أمي ارتاحي أنتي كفاية عليكي شغل كدا أنا خلاص هتخرج وأشتغل ومش هخليكي محتاجة حاجة

قالت إن شاء الله هتتخرج وتبقي ممثل قد الدنيا زي ما بتتمنى بس معلش يابني اديني بساعد لحد ما تتخرج.

ذهبت إلى جامعتي وبعد ان انهيت يومي ورجعت في طريقي إلى البيت وجدت محمد ابن الجيران يخبرني بأن أمي فاطمة قد توفاها الله وهي

تعمل على عربة الفول .. لم اصدق ما تسمعه أذناي.. أمي فاطمة ماتت.. كيف.. هل صفقت وحدي في تلك الحياة

ابى الذي لا اعلم عنه شيئا منذ ان كنت في السابعة من عمري، وأمي التي ولدتني فارقت الحياة قبل ان أراها حتى ومن عوضتني حنان أمي وكانت لي بمثابة الأب والأم فارقتني أيضا هل أنا فال شؤم على عائلتي؟ لماذا يرحل كل من نحب؟

أسئلة كثيرة دارت في رأسي وأنا أقف لا اتحدث فقط تدمع عيناي...

مرت الأيام وتخرجت من الجامعة ولكني لم اجد عمل

لم أستطع سداد إيجار شقتي فعرض علي صاحب البيت غرفة أعلى السطوح اسكن فيها ويكون إيجارها في متناول يدي ومعها بدأت فصل جديد في حكايتي...

كثيرا ما نشاهد في أفلامنا القديمة شخصا ليس له دور في

الفيلم إلا انه كان يصفق ويرقص في إحدى احتفالات هذه الأفلام، ربما نراه مرة واحدة خلال احداث الفيلم التي تمتد لساعتين واكثر.

أنا أحد هذه المجاميع.. ((مجاميع)) هو اسم يطلق على هؤلاء الناس الذين يقومون بأداء هذه الأدوار في المسلسلات والأفلام بمقابل بسيط

نظرا لدورهم في العمل .. ولكن حكايتي، في أحد الأيام بينما كان المُخرج يوجّه أحد الفنانين الكبار لأداء دوره في العمل قال المخرج كلمة كانت مفتاحا لموهبة مكنونة لدي ولم اعلم عنها شيئا.. قال للمثل بعد شرح طويل.. (أنا عاوزك تعمل ..... مش عارف اشرحها لك ازاي الكلام مش هيوصف) انتبهت إلى كلمته ورأيت نفسي واقف أمامه دون ان اعرف كيف..

نظرت في عينيه نظرة سريعة ثم ابتعدت ... قمت بأداء الدور وحيدا في غرفة خلع الملابس كما كان المخرج يريد بالضبط او كما فهمت من عينيه وللمصادفة رآني المخرج خلسة وهو ذاهب إلى الغرفة ثم قال لي تعال يا آدم.. ذهبت معه دون ان اعرف ما يريد ثم قال افعل ما كنت تفعل داخل الغرفة هناك

حاولت ان أقوم بنفس الأداء التمثيلي، ولكني لم أستطيع نهرن المخرج وأبعدني بعيدا خارج العمل ظنا منه انني لم اريد أداء الدور، ولكني حقا لم أستطيع.

هذه كانت إحدى مشاكلي في الحياة ... بعدها بدأت ان اختبر موهبتي على العديد من الطرق فكنت ما ان أقف أمام شخص إلا وأعرف ادق

تفاصيل حياته اليومية كأنها آلة نسخ كنت محبوبا من الجميع.. فكانت لدي نظرة مختلفة لحل مشكلاتهم.. ((عندما تعرف مشكلة لم تكن أنت صاحبها، ولكنك تعرف ادق تفاصيلها فسوف يكون لديك نظرة ثاقبة للحل..))

تلك المقولة كنت اكتبها في مذكراتي اليومية في غرفتي....
لم اكن متطفل ولكني انتظر ان يطلب مني التدخل وفي هذه اللحظة تعمل قواي الخارقة
لى معرفة التفاصيل وتحليلها وإجاد الحل في اسرع وقت ممكن، ولكن ترى هل أستطيع ان احل مشكلتي؟
في ذلك اليوم عندما كنت عائدا من العمل منهكا رغم صغر دوري في المسلسل، ولكن المخرج ابقاني يومان بدون نوم حتى ينتهي من المشهد الذي كان صعبا نوعا ما.. رأيت جمالات ابنة الداية التي قامت بعملية ولادتي هي تكبرني ب ٥ سنوات، ولكنها لم يسبق لها الزواج فهي ورثت الفقر ايضا عن اسرتها كما يعلم الجميع وذلك بعد ان تركوها وحيدة في عالمها البائس تقابلنا ولم اعرف من هي، ولكنها عرفتني فهي تحفظ

تفاصيل وجهي بعد ان قصت عليها امها حكايتي من يوم مولدي وحتى تلك الأيام التي كنت امر عليها فيها امام السوق احمل معها بسطة الخضار التي كانت تعمل عليها بعد ان خارت قوها ولم تستطيع تحمل عملها كداية وايضا مع تقدم الزمان أصبحت تلك المهنة معدومة مع أساليب الطب الحديثة..

وقفت جمالات أمامي للحظات وهي تنظر إلى عيني ثم استشاطت غضبا قائلة ((في ايه ياعم انت مالك بتبحلقلي كدا ليه .. قطيعة .. امشي من هنا بدل ما انسل اللي في رجلي على دماغك

تدخل اهل المكان وقالا لها، بس يا جملات دا آدم يا بنتي شاب طيب وابن حلال.. لم تعرهم اهتماما وأخذت بعضها ورحلت..

لم اتحدث إليها فأنا اعرف مكنونها اكثر منها. اعلم تلك النظرة التي كانت تنظرها إليّ انها تحمل معها مشاعر ولكنها تكسوها بذلك الغضب المصطنع لكيلا يطمع فيها طامع ذهبت إلى غرفتي وسجلت اسم ((جمالات في الدفتر وكتبت بجانبها على غير المعتاد.. ((الحب مع القوة

تعددت اللقاءات بيني وبين جمالات بقصد وبدون قصد حتى خارت دفاعاتها واعترفت لي بحبها وانا كذلك رق قلبي لها وبدأت مشاعري

تتحرك نحوها اتفقنا على الزواج وان تجلس معي في غرفتي أعلى السطوح حتى يفتح الله لنا باب رزق ونغير مكاننا.

تزوجنا وعشنا اياما جميلة.. كان الفقر حليفنا.

ولكن الأيام كانت تمر رغم ما بها من المُر.. اعترفت لي جمالات بأمر انتظرتها طويلا ان تبوح به وها هي اخيرا تقول لي انها تملك مبلغا من المال لم يعرف عنه أحد.. وانه من الممكن ان يساعدنا على الذهاب إلى الطبيب وإجراء فحوصات طبيه لمعرفة سبب تأخر الحمل.

فهي كانت غير راضية عن حياتها بدون أبناء، ولكني لم أفكر في ذلك ابدا ... بالفعل ذهبنا للطبيب وقمنا بإجراء الفحوصات ولكن تبين انها ليس لديها اي موانع للحمل ولا انا ايضا.. إنه قدرنا.. بقيّ من المال القليل.. اتفقت معها ان آخذهم لعمل دورات تدريبية على التمثيل أمام الجميع لعل عقدتي تحل وأستطيع التمثيل.. وافقت على الفور.. ذهبت إلى أحد مراكز التدريب ودفعت ما لدي من مال، ولكن لسوء حظي تعرضت لعملية نصب واحتيال.....

خسرت المال ورجعت بلا هدف او أمل.. في طريقي إلى المنزل قابلت رجلا كان يسأل عني توقفت ونظرت إليه حتى جاءني أحد الجيران ليخبرني انه

..... قلت له لا تكمل اعرف انه ابي، ولكن هو في نظري قد مات منذ اليوم الذي تركنا انا وامي وذهب تحدث إليّ طايع وقال يا ابني انا عاوز بس اتكلم معاك واوعدك إنك بعدها مش هتشوف وشي تاني.. بعد ضغط من الجيران قررت ان اجلس معه واعرف ما يريد.. ذهبنا إلى النيل.. وبدأ طايع في الحديث وقال: يابني انا مش هطول عليك .. وفي نفس الوقت مش جاي اعيش دور المظلوم انا عارف إني كنت ندل لما سبتكم ومشيت، بس كنت عاوز اجرب حظي تاني في الجواز، أنا بحب العيال وان يكون ليا ذريه.. ماكنتش عاوزك تبقى وحيد زي حلاتي في الدنيا دي وفعلا جربت حظي في الجواز كذا مرة وربنا ما ارادش يكون ليا غيرك.. وسبب رجوعي هو السرداب.. قررت ارجع وادخل السرداب وانهي حياتي اللي ملهاش لازمة.. ولكن قابلني صاحبي عوض وقالي ان في مركب طالعة اليونان

وطالبين عمال عليها وانا وافقت اروح قلت لنفسي انا كدا كدا ميت بس كان نفسي اشوفك قبل ما امشي .. اشوف وشك بخير يا بني

ذهب طايع كعادته، ولكن تلك المرة دون عودة وقبل ان يذهب قد اعطاني مفتاحا جديد للحياة والموت معا.. اعطاني السرداب ... فكرت في

كلامه كثيرا وكانت فكرة السرداب لا تتركني ابدا، كانت تأتيني رؤى واحلام كثيرة منها الجميل ومنها القبيح عن السرداب ما زاد انشغالي به أكثر تكلمت مع جمالات في الأمر.. وكانت في بدايته خائفة، ولكن بعد ان وضحت لها الأمور وأن حياتنا وعدمها سواء قررت ان تشاركني في رحلتي المجهولة...

بدأت في تتبع الشيخ آدم ومراقبته حتى يكون البيت خاليا

وندخل إلى السرداب .. بالفعل بعد ان ذهب الشيخ "آدم" لأداء صلاة الفجر دخلنا إلى منزله وفتحنا باب السرداب ورأينا نورا قويا، تركتني جملات وهربت ولكني دخلت إلى السرداب وبقيت في طريق طويل لا ارى إلا سراب اشخاص يقفون بعيدا جدا..

كلما اقتربت منهم اشعر بالأمان حتى وصلت إلى هنا ووجدت ابي يقف إلى جواري ولا اعلم كيف اعود

وقف الرجلان وقالا انهم سيذهبون ليبحثوا عن السرداب والعودة من جديد إلى عالمهم

بعد ان أغلقنا الحانة ذهبت مع صديقتي إلى مكان النوم وبالفعل توسد كل منا سريره ولكن النوم لم يأتي.

انتظرت دقائق ثم سألتها: أنت لم تتكلمي قبل عن حكايتك وكيف جئت إلى هذا المكان؟

هل تقصي عليا ما كان؟

تنهدت كمن يريد ان يزيح حملا ثقيلا عن قلبه ثم قالت.

كنت في عامي التاسع حين فارقنا والدي لحضن بيت آخر وامرأة أخرى غير أمي، فراق جعلني أشعر أنني فقدت الأمان رغم صغر سني. كنت أبحث عن الأمان في وجوه الآباء وهم يحتضنون بناتهم عند مدرستي كل صباح وعند عودتي للبيت كنت أجلس في غرفتي مغلقة الأبواب والنوافذ.

حتى جاء اليوم الذي صارحتني أمي فيه أنها تُريد الزواج وأنني ربما أذهب للعيش مع والدي في بيته الجديد وزوجته الجديدة التي لم تُرزق بأبناء رغم أنها تصغر والدي بسنوات كثيرة..

مرت السنوات التي كانت مليئة بالألم الذي كنت أعيش فيه كل يوم من إهانة ومعاملة سيئة من زوجة أبي حين يذهب إلى عمله ثم يتبدل الحال في وجوده

حتى تممت عامي التاسع عشر ومثل كل البنات أحلم بذلك الفارس ليخطفني.

كنت اتمنى أن أرحل عن ذلك البيت وأن أبني حياة سعيدة

شاهدته ذلك اليوم أثناء خروجي من العمل.. كنت أعمل في عيادة أسنان بالفترة المسائية لأتمكن من تحصيل المصروفات الخاصة لأتجنب حديث زوجة أبي عن ضيق الحال والشعور بأنني عالة على البيت،

كان يسأل حينها عن مواعيد العيادة، وجدت نفسي لا أتحرك من أمامه وأنظر إليه، وكأنه أسر كل شعوري وتبدل المكان والزمان، كأنه ملك متوج يأمر فيطاع، حتى أبتسم لي وكرر سؤاله مرة أخرى وعاد بي إلى عالمي من جديد.. خجلت كثيرا حينها وجاوبته عن سؤاله.. ثم هربت من أمامه.

تردد على العيادة بعدها كثيرا وفي كل مرة أكون تلك الفتاة المسحورة في حضوره، حتى أنفاسي تنقطع وأنا أنظر إليه.. وفي يوم جاء مباشرة ونظر في عيني وقال تتزوجيني؟ لم أشعر بنفسي كدت أفقد وعى.

مرت الأيام وتم الزواج.. كنت لا أصدق نفسي فحلمي تحقق.. وجدت فارس أحلامي الذي سيأخذني الى مملكتي أكون فيها أنا سيدة المكان، وجدت حياتي أخيرا..

في بادئ الامر تعامل معي برفق السيد إلى جاريته الحسناء.. أحببت الأمر فهو زوجي وواجبي إليه الطاعة.. وهو لا يأمرني بشر ابدا.. هو لا يطلب غير خضوعي له فقط.. حتى طلبه يكون برفق وحب

سلمت له نفسي تماما وكنت سعيدة بهذا الامر حتى بدأت الامور تتغير

في البدء كان يؤلمني، ولكن تعرف ذلك الألم الذي تغلفه النشوة يصبح ألم مقبول كالذي يصعد الدرج حتى يصل الى مبتغاه.

كنت أتلذذ بآلامي وأنا معه في الفراش.

أدمنته نعم أدمنت تفاصيل يديه وأصابعه على جسدي..

أدمنت ساديته الكلاسيكية معي.

ولكن لم يعد الأمر كذلك، كانت الأحداث تتطور بصورة سريعة. حتى أصبح الألم لا يطاق.

وجدت نفسي أتحول إلى مريضة خاضعة لسيدها، فقط لأني عشقته فهو أول حب وأول رجل في حياتي.

ولكنه كالجحيم يقول دائما هل من مزيد.

قررت حينها التوقف عن ذلك، حاولت كثيرا لكنه كان يرفض ويجبرني على الخضوع له.

كان يأخذ ما يريد غير مبالياً برفضي، لم أستطيع التحمل أكثر من ذلك، وقررت الهرب.

حاولت كثيرا وفي كل مرة كان يكتشف محاولتي يزيد من إحكام قيده على حياتي كان يعاقبني بمنتهي القسوة والسادية على جسدي ويتفنن في إيلامي.

حتى جاء الوقت الذي عقدت العزم فيه على النجاح في الهرب، حتى لو كان هرب من الحياة كـ كل

سلمت له نفسي دون مقاومة حتى قضى رغبته كاملة وطلبت المزيد فأعطاني ما أُريد وحين كان في سكرة شهوته وغفت عيناه ضربته على رأسه واحللت قيدي وأخذتُ سيارته وهربت بقيتُ ابحث في الطريق على أي مأوي حتى وصلتُ إلى هذه الحانة وقابلت صاحبها الذي كان يتحدث العربية بشق الأنفس.

لم يسألني شيئا عن نفسي، ولكنه علمني كيف أُخفي ألمي وأبتسم في وجوه الجميع.

كيف أستمع إلى الناس ولا أُعطي لهم الأمان، كيف أحيا دون ان يعرفني أحد، كيف أُخفي وجه الملاك وأُحيي الشيطان بداخلي.. وها انا الآن هنا بعد أن فارق هو الحياة وترك لي كل شيء.

انتهت.